لغة شوقي

«خطاب الاستاذ عزالدين بك التنوخي»

بلغ في القرن الماضي انحطاط البيان العربي شعره ونثره أسفل دركاته في جميع الأقطار العربية ولولا من تداركه من أمراء الشعر وزعماء النثر الذين تعهدوا روضه بالحرث والتشذيب والتهذيب لما اكتست لغتنا حلتها العصرية الزاهية ، ولما عادت الى مكانتها السالفة ، فعدت من اللغات الحية السامية ، ولما ظهر في مصر والشام والعراق من الشعراء المتصرفين في فنون الشعر الحي والكتاب الابيناء من أعانوا من تقدمهم في الأخذ بناصر هذه اللغة العذبة المباركة فأعادوا اليها شبابها بما أحيوه من آدابها ، والا فان سخنة عين الأدب ما كان عليه البيان منثوره ومنظومه قبل الشيخ محمد عبده وابراهيم المويلحي والبارودي وصبري وحافظ وشوقي : تعابير سوقية مبتذلة ، وكلف بالصناعة وشغف بالتصنع ، والفاظ لامنحولة ولا معسولة ، ومعانٍ سقيمة مردّدة مملولة ، والغالب مع ذلك على النثر انطباعه على سجع ليس تحته رجع ، ولنا ان نعتبر البارودي هو المهلهل الثاني لأن الاول قد هلهل الشعر وقصده ، والثاني قد أنعشه وجدده ، وعرض للناس أسلوبه الجزل المستقطر من أساليب البحتري والمتنبي وأبي تمام والرضي وصريع الغواني وسائر من اختار لهم في مختاراته من حذاق القريض ورواض القوافي ، وقد حذا صبري حذوه في تنقيح الشعر وتنويقه ، الا انه قد فاقه بتقصيره وترقيقه ، وقد باراهما حافظ وأخذ أخذهما في شد اسر الشعر وتجويد حبكه ؛ واما راحلنا الكريم فقد كان بادي الرأي يخشب الشعر في شبيبته بينا كان حافظ يبالغ في تنقيحه وتحكيكه ، فكان المولعون يومئذ بصناعة الشعر يفضلون في ذلك حافظاً على قريعه شوقي ، واما المولعون بقوة الشاعرية وسمو المعنى ، وسعة الخيال وخلود الحكمة والأمثال وبعد الشعر عن التعسف وقربه من الطبع والطلاوة فكانوا في ذلك كله يفضلون شوقي على خدينه ، وكأن لسان حالهم يقول :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

« اذا صح ان شوقياً يخشب الشعر وحافظاً ينقحه ، فان خشب شوقي خير من تنقيح حافظ ، كما قيل مثل ذلك في جرير والفرزدق ؛ والحقيقة ان شوقي ما كان يخشب الشعر في شبيبته الا لسرعة خاطره ، وفيض قريحته التي كانت تحمله على قول الشعر على البديهة لا يكد فيه طبعاً ولا يسهر عليه جفناً ؛ مع انا رأيناه بعد كهولته يعني بتنقيح لغة شعره حتى أوشك ان يجاري في ذلك أخاه حافظاً ذلك الذي كاد لفرط تنقيحه وتحكيكه للشعر يشبه الحطيئة الذي يقول : خير الشعر الحوليّ المنقح المحكك ، وبذلك حق لشوقي ان يقلد إمارة الشعر بمبناه ومعناه معاً ، وقد كان العرب كما ذهب اليه صاحب الوساطة « انما تفاضل بين الشعراء في الجودة والحسن بشرف المعنى وصحته ، وجزالة اللفظ واستقامته ، وتسلم السبق فيه لمن وصف فأصاب ، وشبه فقارب ، وبده فأغزر ، ولمن كثرت سوائر أمثاله وشوارد أبياته ، ولم تكن تعبأ بالتجنيس والمطابقة ، ولا تحفل بالابداع والاستعارة اذا حصل لها عمود الشعر ونظام القريض .» وشوقي في الكثير من ذلك وبوفرة انتاجه ، وازدياد شعره شباباً وفتوة بازدياده شيخوخة وضعف قوة يتفوق على سائر المعاصرين .

تخرج شوقي في اللغة على الاستاذ النابغة المرصفي صاحب الوسيلة ، وكان احب الشعراء اليه — كما اجاب به سائلاً — هو المتنبي قال مانصه : « وانا اعده استاذي الاول ثم يلي المتنبي ابن الرومي ، واحب شعراء الغرب اليّ فكتورهوغو ودي موسه الذي لا أمل القراءة فيه » ؛ ومن ذلك نستنتج ان لغة امير الشعراء قد تأثرت كل التأثر بلغة نبي الشعراء ابي الطيب المتنبي ، الذي كان يذكره في شعره قائلاً :

ولو مشت بي الليالي تحت كوكبه غادرت احمد نسياً وابن حمدانا

وتأثرت بعده بلغة ابن الرومي ، ثم بلغة من عارضهم من فحولة الشعر وصاغة القريض كالبحتري الذي عارضه في سينيته ، والحصري في داليته ، والابوصيري في البردة والهمزية ، وابن زيدون في اندلسيته النونية ، وامثالهم ممن يمر كلامهم العذب على الآذان ممر الصبا على عذبات الاغصان ، وانما تأثرت لغة شوقي بمعارضة قلائدهم المشهورة لان المعارضة تدعو الى المضارعة ، فان كان المعارض جيد الحبك نقي المستشف اقتبس المعارض ذلك منه طبعاً وارتاض على طريقته ، وان كان المعارض رديء السبك ، ضعيف التأليف متجافياً عن مضاجع الرقة ومتجانفاً عن مذاهب السلاسة اثرت لغته بمقدار زمن المضارعة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

والتقليد ذلك ان العبارة السقيمة اعلق بالنفس كما ذهب اليه الجاحظ من العبارة القويمة ، واسهل مراساً واهون اقتباساً ، والحقيقة ان المتأمل في شعر شوقي واسلوبه وتعبيره وتركيبه ، يوقن انه خلاصة اساليب فحولة القريض ، هذا في الشعر ؛ واما النثر فقد كان يعجبه اسلوب ابن خلدون كما يظهر ذلك من شعره وتروقه لغة المبرد في كامله قال في تحليته لكتاب فتح مصر الحديث لحافظ عوض :

لغة الكامل في استرساله وابن خلدون اذا صح وصابا

ولغة المبرد امتازت بمتانتها وابن خلدون بطلاوتها، فشوقي على ذلك تعجبه لغة المجودين من امراء الصناعتين وان كان لايحسن استرسالهم الى تكلف في سجع يرد الطبع كثيراً منه ، ولا يعجب بلغاء الكتاب المترسلين .

ان الشعر على مذهب شوقي لايسمى شعراً ما لم يكن عاطفة وحكمة وذكرى ، فاذا مانحن حللنا شعر ديوانه ، وأنعمنا النظر في أسلوب تفكيره وبيانه ، حكمنا بان ذكراه وعاطفته الذائبة في شعره الوجداني قد قويتا فيه بتأثره بشعر ابي تمام والرضي وابن الرومي والبحتري وبشار ومهيار وأضرابهم ، وان حكمته التي اكثر منها في شعره ، وكثيراً من أساليب بيانه قد احتذا فيها طريقة أستاذه الاول ابي الطيب ، كما قال في حكمة الشعر :

والشعر ما لم يكن ذكرى وعاطفة او حكمة فهو تقطيع وأوزان

ومن الأمثال الدالة على تأثير المتنبي في أسلوب شوقي قوله مثلاً :

ولا تبال بشعر بعد شاعره قد افسد القول حتى احمد الصمم

وشوقي يقول محتذياً أستاذه :

ولا تبال بكنز بعد مبسمه اغلى اليواقيت ماالعطيت والدرر

والمتنبي يقول في ابن العميد :

عربي لسانه فلسفي رأيه فارسية أعياده

وتلميذه شوقي يقول في الخديوي سعيد :

عربي زمانه عمريه عهده فيه رحمة ووفاء

وانظر الى قول شوقي في حور دمر والهامة :

والحور في دمر او حول هامتها حور كواشف عن ساق وولدان

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

تجد انه في تشبيهه الحور بالحور وقد كشفن عن ساق ينظر الى قول مهيار في الاشجار :

وعزت فصانت سوى ساقها وما ان اباحته الا اضطرارا
تشمر عنه جلابيبها لعادته ان يخوض الغمارا

ثم انظر الى تأثره بشعر المعري مثلاً :

لعلاك المذكرات عبيد خضع والمؤنثات إماء

وابو العلاء يقول من قبله :

لمليك المذكرات عبيد وكذاك المؤنثات اماء

وكذلك يقول شوقي :

ومهد المرء في أيدي الرواقي كنعش المرء بين النائحات

مثلما قال المعري من قبله :

وشبيه صوت النعي اذا قيـ ـس بصوت البشير في كل ناد

وألفت نظرك بعد ذلك كله الى قول شوقي وهو يصف الأطلال المندثرة والرسوم المبعثرة :

فلا تستبين سوى قرية اجدّ محاسنها ما اندثر

فتحسبه ينظر الى قول ابي نؤاس في وصف الرسوم :

لمن دمنٌ تزداد حسن رسوم على طول ماأقوت وطيب نسيم

ولا نكران أن تأثر الشاعر بمن تقدمه من فحولة الشعر امر طبيعي ، وقلما نجا منه احد من رواض القوافي ، بيد أن من التأثر مايبعث اليه التقليد والتقديس مما لايدعو اليه مقتضى حال ، ولا يولده صدق عاطفة ، وهو ما يجب ان يتخلى منه الشعر المعبر عن الشعور ، ولولا مثل هذا التقليد الناشيء عن تقديسه لاساليب الجاهلية لجب عن نفسه غيبة من تهجم عليه من المجددين ، ولاضعف من حجتهم عليه وان كان فيها كثير من روح التحامل ، فما انتقد عليه قوله :

ريم على القاع بين البان والعلم أحل سفك دمي في الاشهر الحرم

قالوا : لقد كان بامكانه ان يشبب بريم مصري يرتع بين الجيزة وحلوان أو النيل والاهرام فيقول مثلاً :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ريم على المرج بين النيل والهرم أحل سفك دمي في الاشهر الحرم !

ولكنه جرى تقليداً على أسلوب من سبقه من شعراء الجاهلية الذين كانوا يتغزلون بما يعرفون في جزيرة العرب وما يشاهدونه ويشعرون به ، واما من ترسم آثارهم من التابعين فأية علاقة لهم بالبان والعلم وكاظمة وذي سلم ، والروحاء ودارة العلم ، وأي ذكرى تهيجهم لذكرها ووصفها ، فان قلنا لهم ان شوقي ماتشوّق الى البان والعلم — وهو في هذا الموطن صحيح — الا لاتصال هذين الموضعين بمدينة النبي العربي المبين ، قالوا : فما باله إذن لا يترك مثل هذا التشبيب في قصيدة يقولها في مشروع ملنر :

اثن عنان القلب واسلم به من ربرب الرمل ومن سربه

وما باله يقول في قصيدة أخرى أنشدت في حفلة تكريم لمعتقلين يخرجون من السجن :

يحدجن بالحدق الحواسد دميةً كظباء وجرة مقلتين وجيدا

مقلداً في ذلك قول امرئ القيس وبينهما ما بينهما من القرون :

تصد وتبدي عن اسيل وتتقي بناظرة من وحش وجرة مطفل

الا سمعت ما قاله القاضي في وساطته : « ولا تلتفتن الى مايقوله المغنوبون في وجرة وجاسم ، فانما يطلب به بعضهم الاغراب على بعض ، وقد رأيت ظباء جاسم فلم أرها الا كغيرها من الظباء ، وسألت من لا أحصي من الأعراب عن وحش وجرة فلم يروا لها فضلاً عن وحش ضريّة وغزلان بسيطة ، وقد يختلف خلق الظباء والوانها باختلاف المنشأ والمرتع ، واما العيون فقلّ ان تختلف لذلك . »

وهذا لايمنع ان شوقياً كان واقفاً على أسرار العربية ، عارفاً بفرائدها الفصحى ، مميزاً بين معسولها ومرذولها ، وانه كان لا يستعمل الوحشي الغريب الا اذا عن وجود الانسيّ القريب ولم يقم مقامه في دقة التعبير وفي وضوح الدلالة والاشارة ؛ وكثيراً ماتجيئه للغريب المهجور ضرورة القافية كالقنا المشتجر ، واقام الصعر ، والخميس الدثر او ما هو أغرب من ذلك كجرضى وحضوضى والبوغاء بمعنى التراب والعهاء بمعنى السحاب وهلم جرا ، ولعله لولا طول نفس القافية في طويلاته التي يختلف عدد الواحدة منهن ما بين مائة وثلاثمائة بيت تقريباً ، لولا ذلك لما اضطر الى استعمال غريب القوافي المهجور ، وترك القريب الحبيب

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

المشهور ، نعم ان من الموضوعات مايلجئ الشاعر بطبيعته الى الإسهاب ، وانه مازالت الصلة بالشعر القديم وثيقة العرى ، غير ان الخلود في الشعر بهذا العصر لا يكتب الا للقصائر ، التي لا يلجأ فيها الشاعر الى التعمل والضرائر ؛ على أن له من القصائر الخالدة لامتيازها بالفاظها المتخيرة ومعانيها العلوية وعواطفها المتأججة ما يتغنى به العاشق الشاكي والصندوق الحاكي في الشوارع والمجامع .

وفي لغة شوقي مفردات عامية كان يتجوز في استعمالها ايثاراً لوضوح الدلالة ، وما ذا كان عليه لو نقى لغته من أمثال طار بمعنى اطار الواردة في قوله يصف قرص الشمس طالعاً :

فسمت فكانت نصف طار مابدا حتى اناف فلاح طاراً اكبرا

اذ لم ترد طار في الفصحى بمعنى اطار الذي هو حلقة الشيء وما احاط به ومنه اطار الدف والمنخل ، واطار البيت كالمنطقة حوله ؛ ومنها فعل حرق بمعنى اضرم فيه النار اذ لم يرد متعدياً الا بالهمزة ، واما الثلاثي فقد ورد بمعنى آخر وهو حك بعض الاسنان ببعض من الغيظ والحنق نحو حرق عليه الارم ومنه قول الشاعر :

نبئت احماء سليمى انما باتوا غضابا يحرقون الأرما

ويقال : حرق الرجل مبنياً للمجهول فهو محروق اذا انفصلت حارقته وهي العصبة الجامعة بين رأس الفخذ والورك ؛ كأنه جاء بمعنى برد الحديد بالمبرد ، فالافصح إذن ان يقال احرق لاحرق كما يقال اغلق لاغلق ؛ ومن هذه الالفاظ العامية لفظة دهان بمعنى نقش في قوله :

صحب الزمان دهانها حيناً عهيداً بعد حين

فالدهان جمع دهن ، وقد وردت في قوله تعالى : فكانت وردة كالدهان ، قال الفراء : شبهها في اختلاف الوانها بالدهن واختلاف الوانه ؛ ويطلق الدهان على الجلد الاحمر ، فالدهان على ذلك لم يرد بمعنى النقش والطلاء Peinture ، الا اذا اعتبرنا الدهان من قبيل المجاز المرسل لحلول الدهن في الصبغ وهو زيت الدهانين المعروف ، ولو قال : « صحب الزمان نقوشها » لاستقام الوزن ولاصاب شاكلة الفصحى .

ومنها لفظة المعية بمعنى الحاشية والبطانة في قوله :

قامت السراة به والمعية النجب

فان البطانة تحل محل المعية ويستقيم الوزن معها ، والمعية من مصطلح النحو بمعنى المصاحبة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

واما استعمالها بمعنى البطانة فمن المصطلحات التركية لا العربية ، وفي استعمالها التباس ينافي التخصيص ولا حاجة في التعبير اليها .

بيدان من الالفاظ العامية مايحتاج اليها لعروبة مادتها ورشاقة صيغتها ، ولعدم ما يقوم مقامها كلفظة مرفع بمعنى كرنفال ، فقد استعملها شوقي في قوله يخاطب النفس :

كم بنت فيه وكم خفيت كأنه ثوب الممثل او لباس المرفع

واذا نحن ابينا ان نستعملها فقد حجرنا واسعاً وحملتنا الحاجة الى استعمال « كرنفال » ، كما انا لو لم نستعمل جريدة لاضطررنا الى استعمال « جورنال » .

هذا وقد امتاز بما وفق اليه من حسن استعمال الاعلام الاعجمية مع المحافظة على رنة الشعر الموسيقية ، فتسمعه في مطلع قصيدة « طوكيو » التي وصف بها نكبة اليابان بزلزالها يقول :

قف «ببطوكيو» وطف على «يوكاهامه» وسل القريتين كيف القيامة

وتصغي اليه في قصيدة اخرى يخاطب اللورد كرومر :

هل من نداك على المدرس انها تذر العلوم وتأخذ الفوتبولا

فتجد للفظة الاعجمية في هذا البيت مع بشاعتها حسن الشيء يحل محله ، ثم يذكر لك وزيرين انكليزيين ومدينة انكليزية في بيت واحد وهو :

واحمل بساقك ربطة في لندن واخلف هناك غراي او كمبيلا

ومع ان الاكثار في الشعر من الالفاظ والاعلام الأعجمية الثقيلة مما ينافي لغة الشعر وسلاسته ، وهي اجمل حلاه ، ويجافي رنته الموسيقية وهي نشوة طلاه ، نجد الشاعر بحسن تصرفه وتأتيه وتلطفه يكاد يعرب لنا تلك الطمطمانية حتى نسيغها ، من ذلك التلطف قوله :

أأم المالكين بني أمون ليهنك انهم نزعوا امونا

ولدت له المآمين الدواهي ولم تلدي له قط الامينا

فقد اتبع البيت الاول المنتهي بأمون بالثاني المنتهي بالأمين ، ومن هذه القوافي التي احكم وضعها قوله :

لك الاصل الذي نبتت عليه فروع المجد من «كرنارفونا»

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

خليلي اهبطا الوادي وميلا الى غرف الشموس الغاربينا
وخصا بالعمار وبالتحايا رفات المجد من «توتخمينا»

واما قوله في وصف ينبوع «كوك صو» بالاستانة فهو من مائه اعذب وتحيته منه اطيب :

تحية شاعر ياماء «ككسو» فليس سواك للأرواح انس

وله من التعابير مااختص بها ، او احياها واذاعها بشعره كقوله في دمشقيته المشهورة :

و «للحرية الحمراء» باب بكل يد مضرجةٍ يدق

وأعاد «الحرية الحمراء» في قصيدة أُخرى بقوله :

لا بد «للحرية الحمراء» من سا ـ وى ترقد جرحها كالبلسم

وأورد هذا التعبير والحرية موصوفة بوصف آخر في قوله :

سلوا «الحرية الزهراء» عنا وعنكم هل أذاقتنا الوصالا

فهذا التعبير مما اقتبسه شوقي من أُستاذه الاول ابي الطيب ، وله فضل إذاعته ، فقد قال المتنبي يصف الحدث بالحمراء لانصباغها بالدماء :

هل الحدث الحمراء تعرف لونها وتعلم أيّ الساقيين الغمائم

ومن تعابيره الشوقية المبتدعة قوله : «العلم بدريّ» فانه نسب العلم الى بدر مشيراً الى الأثر القائل : «ان اهل بدر مغفور لهم هفواتهم» :

والعلم بدريّ احل لأهله ما يصنعون

ومنها كلوبترة المكايد وايزيس الندى وعيسى الشعور وعمرو الامور ، ونعته لابي الهول بديدبان القدر أي حارسه ورقيبه ، وأمثالها كثيرة في شعره ، وآخر ماصنع من ذلك تلقيبه لصديقه حافظ بحافظ الفصحى .

ومن المفردات التي يظن ان شوقيًا اول من استعملها ونشرها لفظة «مثّال» أطلقها على نحات التماثيل وصناعته «المثالة» ولم تنتشر هذه الكلمة الا بدافع الحاجة اليها ، ولا كتب لها البقاء الا بمقتضى ناموس بقاء الأصلح ، ونحن أحوج مانكون في هذا العصر الى أمثال هذه المفردات المخصصة التي تعين على التدقيق في التعبير العربي ، وقد أحياها أو أذاعها شوقي باستعمالها ، واللغة تحيا بالاستعمال وتموت بالاهمال ، ومن أحق من الشاعر

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

النابغة او الكاتب البليغ بالأخذ بناصر اللغة بما يحييه او يذيعه من مفرداتها .

وهذا لا يمنع اللغوي الضليع كشوقي أن يسجد في محراب اللغة سجدة السهو كقوله في أسواق الذهب يتحدث عن التزوج باثنتين : وان التيس لو عقل ما اتخذ نعجتين ، فكيف يتزوج الفقير العاقل باثنتين ، والصواب ان يقول : ماتخذ عنزتين ، اذا التيس ذكر المعزى لا الضأن الذي يطلق الكبش على ذكره والنعجة على انثاه .

ومن ابلغ من عني بلغة شوقي ونقدها في مصر محمد المويلحي ، وفي الكثير مما نقده مايدل على ذوق سليم وملكة في الادب قوية مثال ذلك قول شوقي :

وقطعة خد بينما هي جنة لعينيك يارائي اذا هي نار

قال المويلحي : « لو قال صفحة خد لكان التعبير أحسن وأجمل لان القطعة بغير الخد انسب » .

وتنقحت لغة شوقي ، ورقت عبارته وازداد شعره رصانة وانسجاماً واين قوله ايام كان يخشب الشعر :

كم يا جماد قساوة كم هكذا ابداً جحود
نطوي اليك دجى الليا لي والدجى عنا يذود

من قوله ايام تنقيحه وتهذيبه :

الله في الخلق من صب ومن عاني تفنى القلوب ويبقى قلبك الجاني
صوني جمالك عنا اننا بشر من التراب وهذا الحسن روحاني

ولئن قيل ان امرأ القيس قد سبق الى اشياء ابتدعها واستحسنها العرب واتبعه عليها الشعراء ، وعدوا منها استيقافه صحبه في الديار ، فان شوقي قد سبق معظم شعراء عصره في كثرة الاستيقاف وطلب القيام في مطالع قصائده كقوله مستوقفاً :

قف ناج اهرام الجلاد وناد هل من بناتك مجلس او ناد
قف بالممالك وانظر دولة المال واذكر رجالاً ادالوها باجمال
قف بروما وشاهد الامر واشهد ان للملك مالكاً سبحانه
قف على كنز بباريس دفين من فريد في المعاني وثمين
قفي يا اخت يوشع خبرينا أحاديث القرون الغابرينا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ومما سأل به القيام وهو كالاستيقاف من أساليب تعبير شوقي ولغته الشعرية :

قم ناج (جلق) وانشد رسم من بانوا مشت على لرسم أحداث وأزمان
قم ناد (انقرة) وقل يهنيك ملك بنيت على سيوف بنيك
قم سيفي فم الدنيا وحيّ الازهرا وانثر على سماع الزمان الجوهرا
قم سابق الساعة واسبق وعدها الارض ضاقت عنك فاصدع غمدها
قم حيّ هذي النيرات حيّ الحسان الخيرات

واما لغة مطالع قصائده فمنها الركيك بمعناه ومبناه كقوله مثلاً :

يا بارك الله في الدنيا بعباس وبارك الله في عمات عباس

ونحن اذا جارينا في هذا البيت من انتقد مطالع شوقي ، لانجاريه في النقد على اطلاقه فان لشوقي من المطالع ما يعد من الروائع كقوله مثلاً :

ضمي قناعك يا سعاد او ارفعي هذي المحاسن ماخلقن لبرقع !
رمضان ولّى هاتها يا ساقي مشتاقة تسعى الى مشتاق
قلب يذوب ومدمع يجري يالیل هل خبر عن الفجر؟
بالله يانسمات النيل في السحر هل عند كن عن الاحباب من خبر
يا نائح الطلح اشباه عوادينا نشجى لواديك ام نأسى لوادينا

وقد يستعين الانسان لتوضيح عبارته بالتشبيه ولا يستغني عنه احد من العامة ولا الخاصة ، والاصل الذي يعتمد عليه فيه ان يشبه المتكلم المجهول بالمعلوم لدى المخاطب ، فاذا انعكست القضية خفي المقصود وهو المشبه على المشبه له ، وبذلك يكون التشبيه ركناً خطيراً من أركان البيان ، وعوناً ملبياً للمصور الواصف ، ولكن التشبيه قد خرج في عصور انحطاط البيان العربي عن محوره ، وبعد عن غايته ، وأصبح مطمح الشاعر ومسمى خياله ان يشبه شكلاً بشكل ولوناً بلون وطولاً بطول ، وان لم يكن وجه الشبه واضح الملامح لان المشبّه لم يقصد في محاكاته تصويراً ولا تبيينا ، وانما أراد تزويقاً وتحسينا ، وبذلك لم يصح التشبيه من أركان البيان فأمسى من محسنات البديع اللفظية ، وقد انتبه الشاعر الى ذلك فأنقذ كثيراً من شعره وشفاه من هذه العلة وهذا النوع من العيّ والحصر ، واذا أردت مصداق ذلك فانظر مثلاً الى ذلك التصوير البارع في التشبيه التالي :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

بِنَّا فلم نخل من روح يراوحنا من بر مصر وريحان يغادينا
كأم موسى على اسم الله تكفلنا وباسمه ذهبت في اليم تلقينا
ومصر كالكرم ذي الاحسان فاكهة لحاضرين وأكواب لبادينا

ومنها :

نحن النواقيت خاض النار جوهرنا ولم يهن بيد التشتيت غالينا
ولا يحول لنا صبغ ولا خلق اذا تلوّن كالحرباء شانينا

وأنعم النظر في تشبيهه للحمام الأسود المغرّد بالراهبات المرتلات في سود الجلابيب وتأمل ما في ذلك من جمال البيان ولطف المحاكاة :

بيض القلانس في سواد جلابب حلين بالأطواق والأوضاح
رتلن في أوراقهن ملاحنًا كالراهبات صبيحة الإفصاح !
يخطرن بين أرائك ومنابر في هيكل من سندس فياح

واذا جردت بقوة مخيلتك ما في البيتين التاليين من صورة دقيقة واضحة ، شهدت بما للتشبيه الصادق من قوة التصوير وبلاغة التعبير :

وترى الفضاء كمائط من مرمر نضدت عليه بدائع الالواح
الغيم فيه كالنعام بدينة بركت واخرى حلقت بجناح !
وجرت سواق كالنوادب في القرى رعن الشجي بأنة ونواح
الشاكيات وما عرفن صبابة الباكيات بمدمع سحاح
من كل بادية الضلوع غليلة والماء في احشائها ملواح
تبكي اذا ونيت ، وتضحك ان هفت كالعيس بين تنشط ورزاح
هي في السلاسل والغلول وجارها اعمى ينوء بنيره الفداح !

اللغة المجازية في شعر شوقي — لا نكران ان لغة الحقيقة في كلام امير الشعراء هي لغة الشعر الرقيقة المنسجمة ، المنخلة الالفاظ ، المتقنة التركيب ، ومن أحق منه بالاهتداء الى كرائم الالفاظ ورقائق العبارات ، فقد آخى في شعره بين فصاحة اللفظ وبلاغة القول في سلك بيان ناصع ، ترافقه رنة موسيقية علوية أشبه شيء بالرنة البحترية ، واما لغة شوقي المجازية فغالبة على بيانه ، وقلما خلت جملة أبيات منها ، والظاهر ان الاستعارة بانواعها

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

متغلبة على المجاز العقلي والكنايات في شعره ، ولامر ما ولعت العرب بالمجاز لما فيه قوة التصوير وفخامة التعبير مع الايجاز ، ولما يحصل به للنفس من أريحيةٍ مما يدل على ميل بالعرب الى اتساع الكلام ، وان التفنن في وجوه التعبير نتيجة لازمة لقوة التصوير والتفكير ، وقديماً كان الانسان اذا عجز في الكتابة عن التعبير بالرموز الحرفية يلجأ الى رموز الصور مستعيناً بوضوح دلالتها ، فالتصوير الخطي والبياني من أقوى وسائل التعبير .

ومن مجازاته العقلية قوله في مطلع نهج البردة :

(ريم) على القاع بين البان والعلم أحل سفك دمي في الأشهر الحرم
رمى القضاء بعيني (جؤذر) (أسداً) ياساكن القاع أدركساكن الأجم

فالريم وهو الظبي الخالص بياضه والجؤذر وهو ولد البقرة الوحشية قد أطلقهما على محبوبته مجازاً وأطلق الأسد على نفسه ، وكنى عن الغزال بساكن القاع وعن الأسد بساكن الأجم ؛ وفي هذين البيتين من فن البديع طباق بين قوله (احل) وبين (الحرم) ، وهو من المحسنات التي يزين بها شوقي لغته كثيراً ، وبعد اربعة أبيات من هذا البيت بيتان في كل منهما مطابقة وهما :

لقد أنلتك أذناً غير واعية ورب (منتصت) والقلب في (صمم)
ياناعس الطرف لاذقت الهوى أبداً (اسهرت) مضناك في حفظ الهوى (فنم)

اما الاستعارة المبنية على التشبيه فكأنها ماغلبت على لغة شوقي الا لاعتقاده بانها ابلغ من المجاز العقلي لما بين طرفي الاستعارة من المناسبة القوية والمبالغة التي تجيز لك ان تسمي الشيء بغير اسمه وتبلغ بهما حد الاتحاد ولولا القرينة الدالة على مرادك لما انتبه المخاطب الى غير المفهوم من العبارة ، وانك لترى الاستعارات البليغة بانواعها فيما سنورده على سبيل المثال :

القاتلات باجفان بها سقم وللمنية اسباب من السقم
الحاملات لواء الحسن مختلفاً اشكاله وهو فرد غير منقسم

فقوله القاتلات باجفان استعارة مكنية لحذف المشبه به وهو السيوف التي رمز اليها بشيء من لوازمها وهو القتل ، وفي قوله : الحاملات لواء الحسن استعارة مكنية ايضاً ولواء استعارة تخييلية والحمل ترشيحية ، ومع ذلك نجد في حمل لواء الحسن كناية جميلة عن نهاية الحسن فيه ، ومن الاستعارات التصريحية التبعية الكثيرة في شعره قوله :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

دقات قلب المرء قائلة له ان الحياة دقائق وثواني

فقد شبه في هذا البيت الحكيم الدلالة على الشيء بالقول بجامع الايضاح ، واشتق من القول قائلة بمعنى دالة ، والقرينة نسبة القول الى الدقات ، ومن استعاراته اللطيفة قوله :

رأس الحماية مقطوع فلا عدمت كنانة الله حزمًا يقطع الذنبا
يتمشى القضاء خلف نواهيـ ـك حديد الاظفار يطلب صيدا
قصد الدهر منك ركن المعالي ورمى طودها الذي كان طودا
قف ناج اهرام الجلال وناد هل من بناتك مجلس او ناد

ففي مناجاة الاهرام استعارة وفي المجلس والنادي مجاز مرسل وبين ناد الامر ونادي الاسم جناس تام ، ووجود ذلك كله في بيت واحد دليل على ولع شوقي بالاستعارات والمحسنات .

كناياته . — وقد اولع بالكناية لانها من أبلغ ضروب المجاز بقوة تأكيدها وبيان تعبيرها ، بل جعلها البيانيون ابلغ من المجاز لان دعوى الكناية مؤيدة بالبرهان ، ودعوى الاستعارة لادليل عليها ، ومن كناياته البليغة وهي كثيرة قوله :

فدع كل طاغية للزما ن فان الزمان (يقيم الصعر)
رفقًا بجفن كلما ابكيته سال (العقيق) به وقام الماء
وبين الهوى والعدل للقلب موقف كحالك بين السيف (والنار) ثاويا
وبيان كما تجلى على الرسـ ـل تجلى على (رعاة الضال)

ومن جناساته التي شغف بها قوله :

وسلا مصر هل سلا القلب عنها او اسا جرحه الزمان المؤسي
ياقصوراً نظرتها وهي تقضي فسكبت الدموع والحق يُقضي
زار والحرب بين جفني ونومي قد اعد الدجى لهـا اوزارا
مالرب الجمال جار على القلـ ـب كأن لم يكن له القلب جارا

ومن المطابقة في هذه القصيدة والطباق من محسنات البديع المعنوية قوله :

يا ليالي لم اجدك طوالا بعد ليلى ولم اجدك قصارا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

انمن يحمل الخطوب كبارا لا يبالي بحملهن صغارا

ومنها الشيء الكثير في شعره قوله :

وبي رشأ قد كان دنياي حاضراً فغادرني اشتاق دنياي نائيا

وفي هذا البيت (ايهام المطابقة) فان النائي ليس بضد الحاضر وانما يوهم بلفظه انه ضد ومثله قول دعبل .

لا تعجبي يا سلم من رجل (ضحك) المشيب برأسه (فبكى)

ومن مطابقته الرائعة ويسمى طباق المقابلة قوله :

وكمن بالالحاظ (مرضى) (كليلة) فكانت(صحاحاً) في القلوب(مواضيا)

ومن محسنات شوقي المعنوية ايضاً «الاستخدام» اي ذكر لفظ بمعنى واعادة ضمير عليه بمعنى آخر كقول البحتري :

فسقى الغضا والسا كنيه وانهم شبوه بين جوانح وقلوب

ومثله قول شوقي في ايزيس وهو القمر عند قدماء المصريين واحدى معبوداتهم سميت باسمه :

تضيء على صفحات السما ءوتشرق في الارض منها الحُجر

ومنها « الجمع مع التفريق) كقول البحتري :

ولما التقينا والنقا موعد لنا تعجب رائي الدر منا ولاقطه

فمن لؤلؤ تجلوه عند ابتسامها ومن لؤلؤ عند الحديث تساقطه

ومثله قوله في مخاطبة الحمام :

اراك يمانياً ومصر خميلتي كلانا غريب نازح الدار موجع

هما اثنان : دان في التغرب آمن وناء على قرب الديار مروع

ومن محسناته « التصريع » وهو استواء آخر جزء في صدر البيت وآخر جزء في عجزه في الوزن والروي والاعراب وهو اليق مايكون بمطالع القصائد ، وفي وسطه ربما يمجه الذوق وينبو السمع عنه ، ومعظم مطالع شوقي مصرعة وقد تجده في اوساط قصائد ايضاً مع انسجام ورنة موسيقية يستعذبه الذوق ولا ينبو عنه السمع لانه وليد الطبع كقوله :

لك ان تلوم ولي من الاعذار ان الهوى قدر من الاقدار

ومن الترصيع المستحسن في الوسط قوله من قصيدته الاندلسية التي مطلعها :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

اختلاف النهار والليل ينسي اذكرا لي الصبا وايام انسي

وفي وسطها يقول :

في ديار من الخلائف درس ومنار من الطوائف طُلس

وكل ذلك ما كان ليحط من منزلة امير الشعراء او ليذق من خطره وهو القابض على ناصية البلاغة في شعره الخالد ، والملتزم ما يحاوله ، والمحدث بما في نفسك ، وقد وقف على أسرار العربية وشغف بسواحردا شغفاً جعله يتغنى بعربيته وعروبته ، غافلاً عن جنسيته وأرومته ، فمن تغنيه بعروبته قوله وفيه من محسنات البديع الاكتفاء :

تسأل أترابها مؤمئة بالعنم
اي فتى ذلكن العربي العلم ؟
قلن تجاهلته ذلك رب القلم
شاعر مصر الذي لو خفي النجم لم

ومن تغريده في عربيته وهيامه بمحاسنها الأدبية ومزاياها العلمية قوله :

إن للفصحى زماماً ويداً تجنب السهل وتقتاد الصعابا ؟
لغة الذكر لسان المجتبى كيف تعيا بالمنادين جوابا
كل عصر دارها ان صادفت منزلاً رحباً واهلاً وجنابا
ائت بالعمران روضاً يانعاً وادعها تجر ينابيع عذابا
لا تجئها بالمتاع المقتنى سرقاً من كل قوم ونهابا
سل بها اندلساً هل قصرت دون مضمار العلى حين اهابا
غرست في كل ترب اعجم فزكت اصلاً كما طابت نصابا
ومشت مشيتها لم ترتكب غير رجليها ولم تحجل غرابا

ومنه قوله :

ان الذي ملأ اللغات محاسناً جعل الجمال وسره في الضاد

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net